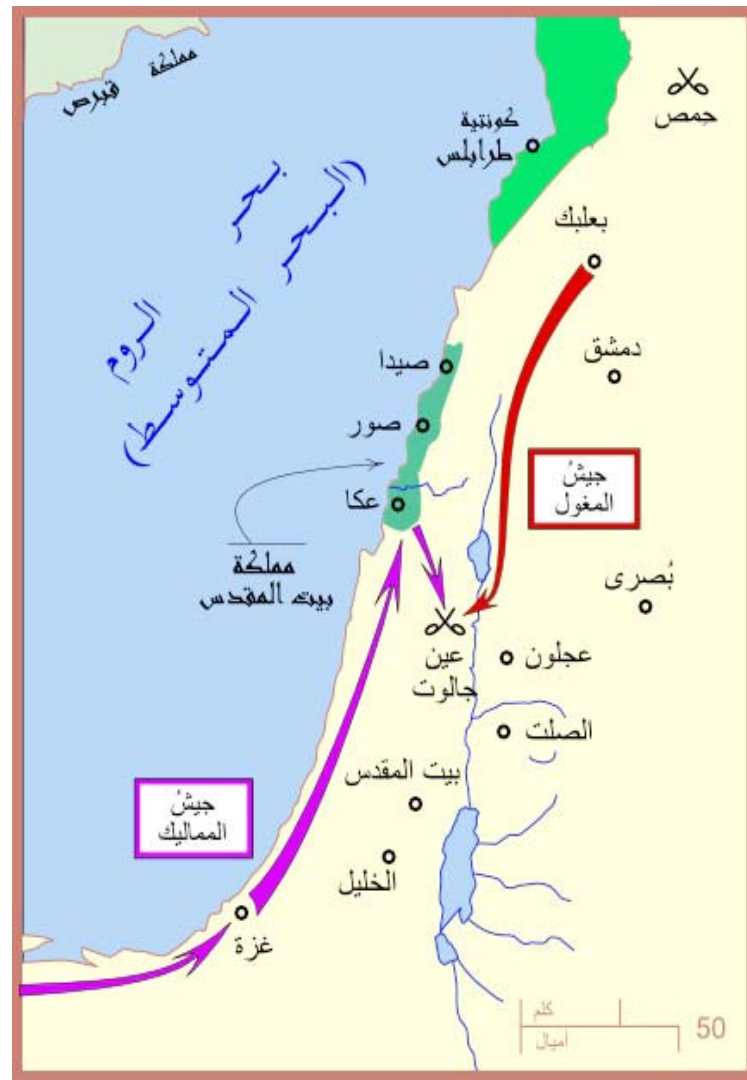


معركة عين جالوت.. نهاية المغول

إعداد: رياض عواد

شهر رمضان المبارك هو شهر الفتوحات والأحداث الجسام في تاريخنا الإسلامي.. وهذه الحلقات نحاول خلالها إبراز أهم الأحداث التي وقعت في هذا الشهر الكريم تلك الأحداث كثيرة ومتنوعة، ما بين معارك إسلامية فاصلة وفتوحات وأحداث إسلامية مهمة تتعلق بمولد أو وفاة أعلام المسلمين، فنعيش خلال الحلقات القادمة مع بعض تلك الأحداث والفتوحات لنقتفي آثارها ونتلمس خطاها.



معركة عين جالوت (25 رمضان 658 هـ / 3 سبتمبر 1260م) هي إحدى أبرز المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي؛ إذ استطاع جيش المماليك بقيادة سيف الدين قطز إحقاق أول هزيمة قاسية بجيش المغول بقيادة كتيبتغا. [3] وقعت المعركة بعد انتكاسات مريرة لدول ومدن العالم الإسلامي، حيث سقطت الدولة الخوارزمية بيد المغول [4] ثم تبعها سقوط بغداد بعد حصار دام أياماً فاستبيحت المدينة وقُتل الخليفة المستعصم بالله فسقطت معه جميع مدن الشام وفلسطين وخضعت لهولاكو. [6] كانت مصر في تلك الفترة تتأثر من الصراعات الداخلية والتي انتهت باعلاء سيف الدين قطز عرش مصر سنة 657 هـ / 1259 سلطاناً للمماليك مصر. [7] فبدأ بالتحضير لمواجهة التتار، فقام بترتيب البيت الداخلي لمصر وقمع ثورات الطامعين بالحكم، ثم أصدر عفواً عاماً عن المماليك الهاربين من مصر بعد مقتل فارس الدين أقطاي بمن فيهم بيبرس، ثم طلب من العز بن عبد السلام إصدار فتوى تُشرع له جمع الضرائب على سكان مصر بعد أن واجهته أزمة اقتصادية عجز من خلالها عن تجهيز الجيش، وكان له ما أراد وأصدر العز بن عبد السلام فتوى تجيز جمع الضرائب بشرط خاصة ومحددة، [8] ما إن انتهى قطز من تجهيز الجيش حتى سار به من منطقة الصحاح شرق مصر حتى وصل إلى سهل عين جالوت الذي يقع تقريباً بين مدينة بيسان شمالاً ومدينة نابلس جنوباً في فلسطين، وفيها تواجه الجيشان الإسلامي والمغولي، وكانت الغلبة للمسلمين، واستطاع الألاف من المغول الهرب من المعركة واتجهوا قرب بيسان، وعندها وقعت المعركة الحاسمة وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً، وأبيد جيش المغول بأكمله.

أوضاع المغول

كانت بداية تأسيس إمبراطورية المغول سنة 603 هـ / 1206م في منغوليا على يد جنكيز خان، فتصدت حتى بلغت حدودها كوريا شرقاً إلى حدود الدولة الخوارزمية غرباً، ومن سهول سيبيريا شمالاً إلى بحر الصين جنوباً، ثم بدأت بالتوسع غرباً حيث سقطت خوارزم سنة 616 هـ / 1219م، فسقطت المدن بيدهم الواحدة تلو الأخرى، حيث سقطت بخارى، [11] ثم سمرقند ثم اجتاحتها إقليم خراسان وخوارزم، وكل ذلك كان في سنة واحدة، وفي سنة 617 هـ / 1220م سقطت أذربيجان وهدمان وتبريز وداغستان والشيشان.

تولى أوقطاي خان الحكم بعد جنكيز خان [13] فضم إقليم فارس إلى المغول. وفي سنة 649 هـ / 1251م تولى الحكم منكو خان، فعين هولاكو والياً لإقليم فارس. وبعد خمس سنوات بدأ هولاكو في حصار بغداد في شهر محرم 656 هـ / 1258م. لم يدم الحصار شهراً واحداً حتى سقطت بغداد ومعها الخلافة العباسية واستبيحت بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله.

توجه بعدها هولاكو إلى حصار ميافارقين التي يتحصن فيها الكامل محمد الأيوبي، والتي ما لبثت أن سقطت، ثم توجه صوب حلب فأمر الناصر يوسف بتسليمها إليه ولكن الناصر رفض، فدخلها سنة 658 هـ / 1260. [16] ثم دخل حماة ودمشق في نفس العام، [17] [18] ولكن ماليت أن رجح هولاكو إقليم فارس ووكل قائده كتيبتغا إكمال الفتوحات، حيث تمكن من احتلال جميع مدن فلسطين التي لا تخضع للصليبيين.

أوضاع المماليك

توفي الصالح أيوب في 647 هـ / 1249م وهو خارج إلى المنصورة لملاقاة لويس التاسع صاحب الحملة الصليبية السابعة. فتولى قيادة الجيش كلا من بيبرس و فارس الدين أقطاي حيث تم لهم النصر في معركة المنصورة. تولى توران شاه الحكم خلفاً لأبيه، ولكنه قتل بعد أربعة أشهر من توليه

الحكم. [20] [21] [22] فحدث فراغ سياسي كبير بعد مقتله، فليس هناك أيوبي مؤهل لقيادة الدولة، عندها أعلنت شجرة الدر بالتعاون مع المماليك حاكمة لمصر. [23] [24] ولكن الرفض عم أجزاء العالم الإسلامي بعد سماعه الخبر، فتمزقت وتنازلت له عن الحكم، وأصبح أول سلاطين مماليك مصر. [25] [26] استقر بعدها الحكم لأبيك واعترف به الخليفة العباسي المستنصر بالله، ولكن بدأت الصراعات بين المماليك في النشوب، ما أدى أن قتل أبيك زعيم المماليك فارس الدين أقطاي، فهرب المماليك الآخرين وعلى رأسهم بيبرس من مصر. ثم ماليت أن قتلت شجرة الدر زوجها أبيك بعدما علمت أنه تزوج من ابنة حاكم الموصل، فسارع سيف الدين قطز ومعه المماليك المعزية ونور الدين علي بن أبيك بالقاء القبض على شجرة الدر وتسليمها لأم نور الدين التي أمرت جواربها بقتلها ضرباً بالقباقيب. بويغ نور الدين علي بن أبيك البالغ

قبل المعركة

كان الوضع في مصر عند اقتراب التتار منها متازم جداً، فالوضع الداخلي يوجع بالاضطرابات والأزمات الشديدة، والفتن الناتجة عن الصراع على كرسي

الحكم، وإن كان قطز قد استقر على كرسي الحكم، إلا أن هناك الكثير من الطامعين في الكرسي وهناك الكثير من الحاقدين على قطز شخصياً. كما أن الفتنة ما زالت دائرة بين المماليك البحرية الذين كانوا مؤيدين لشجرة الدر وبين المماليك المعزية الذين يؤيدون قطز، أما المسرح السياسي الخارجي فكان يحمل مشكلات كبيرة أخرى، وذلك أن العلاقات كانت ممزقة تماماً بين مصر وجيرانها، أما الوضع الاقتصادي فلم يكن بأفضل حالاً من الوضع السياسي، فهناك أزمة اقتصادية بين مصر وجيرانها من الشمال، وكذلك المتتالية، ومن جراء الحروب التي دارت بين مصر وجيرانها من الشمال، وكذلك الفتن والصراعات على المستوى الداخلي، كما أن الناس انشغلوا بانفسهم وبالفتن الداخلية والخارجية، فتردى الاقتصاد لأبعد درجات التردى. [2]

ترتيب الوضع الداخلي

كانت أول خطوة قام بها قطز في إعداده

لحرب التتار هي استقرار الوضع الداخلي في مصر، وقطع أطماع الآخرين في الكرسي الذي يجلس عليه، وما كان من قطز إلا أن جمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي وقال لهم: «إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ولا ياتي ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطة من شئتم»، [31] [32] فهذا معظم من حضر الاجتماع ورضوا بما قال، ثم قام قطز بالقبض على رؤوس الفتنة الذين حاولوا الخروج على سلطته وحكمه، وبذلك هدأت الأمور نسبياً في مصر، أما الخطوة الثانية التي قام بها قطز فهي إصداره لعفو عام وشامل عن المماليك البحرية الذين فروا إلى الشام بعد مقتل زعيمهم فارس الدين أقطاي، [33] [34] كانت هذه الخطوة أبرز قرار سياسي اتخذته قطز، فقوات المماليك المعزية لا تكفي لحرب التتار، وكانت المماليك البحرية قوة عظيمة وقوية جداً ولها خبرة واسعة في الحروب، فإضافة قوة المماليك البحرية

إلى المماليك المعزية ستنشئ جيشاً قوياً قادراً على محاربة التتار، وكان من نتائج هذه الخطوة عودة القائد الظاهر بيبرس إلى مصر وانضمامه إلى قطز، وبهذا توحدت قوى المماليك تحت لواء جيش واحد قائده سيف الدين قطز.

رسل هولاكو

بينما كان سيف الدين قطز منشغلاً بإعداد الجيش، جاءته رسالة من هولاكو يحملها أربع رسل من التتار، وفيها من ملك الملوك شرقاً وغرباً الخاقان الأعظم، باسمك الله باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم ينتعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أننا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطاناً على من حل به غضبه، سلموا إلينا أمركم قبل أن يتكشف الغطاء، فتقدموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكي، ولا نرثق بمن شكى، قد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب، فاي أرض تؤويكم وأي طريق تنجيكم وأي بلاد تحميكم، فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال واعدتنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتلنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإتكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عن الكلام، وخنتم اليهود والأيمان وقشا فيكم العقوق والعصيان، فابشروا بالمذلة والهوان (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون)، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)، فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطيعتم، فلکم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تُهلکوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر وقد ثبت عندكم أنما نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدره والأحكام المدبرة، فكتيركم عندنا قليل، وعزيمكم عندنا ذليل، وبغير المذلة ما لملوكم علينا سبيل، فلا تظيلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ولا كافياً ولا حرازاً، وتدهون منا باعظم داهية، وتصبح بلادكم منا خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأبقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى.

